

العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي الاجتماعي في الميزان في تفسير القرآن

الدكتورة فاطمة حسيني ميرصفي⁽¹⁾

مُستخلص:

يُعتبر الاتجاه الاجتماعي أحد الاتجاهات الهامة والمؤثرة في علم التفسير في العصر الحاضر، والنقطة الهامة في هذا الاتجاه هو التغيير الذي طرأ على نظرة علماء التفسير إلى القرآن الكريم واهتمامهم بالبعد الاجتماعي للقرآن بدل مجرد الرؤية الفردية والأخوية. وعلى هذا الأساس، نراهم يسعون وراء إيجاد حلول للمشاكل المادية والمعنوية في المجتمع من خلال تفسير القرآن الكريم. وقد قام علماء التفسير المعاصرون، عبر فهمهم ونظرتهم الخاصة إلى متطلبات العصر الذي كانوا يعيشون فيه، ببيان الدلالات القرآنية والإجابة عن تساؤلات المخاطبين واستفهاماتهم. ومن هؤلاء المفسرين العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، الذي نتناول في هذه المقالة الدراسة عنه وعن الاتجاه الاجتماعي وفقاً لتفسير الميزان.

(1) أستاذة مساعدة في قسم الفقه ومبادئ الحقوق الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية في جامعة آزاد الإسلامية، مكتب "يادگار الإمام الخميني (رحمة الله عليه)"، مدينة الري.

كلمات مفتاحية:

تفسير القرآن، الاتجاه الاجتماعي، تفسير الميزان، العلامة الطباطبائي.

مقدمة

إن مسألة خلود القرآن وضرورة تواصل دوره التربوي والإرشادي في جميع الأزمنة والعصور ولجميع الأجيال من جهة، ومن جهة أخرى حدوث التغيرات الهامة في المجتمعات البشرية وظهور التساؤلات والشبهات والمتطلبات الجديدة، وكذلك التغيرات الفكرية والاجتماعية العميقة في المجتمعات الإسلامية، والحاجة إلى تحديد الرؤية القرآنية في هذه المواضيع، ذلك كله قد أدى إلى اهتمام المفسرين في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الهجريّ باتجاه جديد في تفسير القرآن الكريم حمل اسم الاتجاه الاجتماعي⁽¹⁾.

ثم إن من جملة مهام المفسر الاجتماعي الاستجابة لمتطلبات العصر، وتطبيق الدين مع المتغيرات الزمانية، ومواجهة حالات سوء الفهم في التفسير، والتقابل مع سلبات الحركة الاستشراقية، والتحصين ضد الهجمات الثقافية والشبهات والتشكيكات حول القرآن، وإضفاء الهوية الإسلامية على المجتمع الإسلامي، وتحكيم النسيج الاجتماعي والديني في الأمة الإسلامية، ومعالجة مظاهر الفقر والمشاكل الأخلاقية الناجمة عن التبعض وإيجاد الفوارق بين طبقات المجتمع، والقضاء على الجهل والامية.

إن الهدف من بعثة الأنبياء هو إرشاد البشرية إلى المعايير والأساليب الصحيحة لاتباع الطريق الصحيح، ومن هنا أبدى الأنبياء اهتماماً خاصاً بدعوة الناس إلى الحكمة والتعلم بهدف الابتعاد عن الخرافات واجتنابها، كما إن المصلحين الاجتماعيين كان من أكبر همومهم مواجهة الانحراف الديني والوقوف بوجه الخرافات المنتشرة في المجتمع، كما كان من أهم أهداف أولئك المصلحين مواجهة الغلو والابتداع الديني.

(1) الرومي، فهد بن سليمان بن عبد الرحمن (1418هـ / 1997م)، الرومي، فهد بن سليمان بن عبد الرحمن (1422ق)، بحوث في أصول التفسير ومناهجه، الطبعة السادسة، رياض، مكتبة التوبة، ص104؛ المؤلف نفسه، اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، الطبعة الثالثة، بيروت، مؤسسة الرسالة، ج2، ص778؛ خرماشاهي، بهاء الدين (1364هـ-ش)، التفسير والتفاسير الحديثة، طهران، نشر كيهان، ص15-16.

إنَّ هداية القرآن تشمل جميع الجوانب والأبعاد في الحياة البشرية الفردية والاجتماعية، الدنيوية منها والأخروية، لكننا نلاحظ أنَّ القرآن الكريم يحتوي على برامج عملية فاعلة للقضايا الاجتماعية مضافاً إلى المسائل الفردية، وعلى هذا الأساس يجب العمل على استخراج هذه البرامج والإرشادات ومعرفتها، وهذا ما يتولَّى مسؤوليته التفسير الاجتماعي.

الاتجاه

الاتجاه في اللغة مشتقٌّ من لفظة «الوجه»⁽¹⁾، ويطلق اصطلاحاً على الخصائص الفكرية والميول والمشارب التي يمتاز بها الفرد، والتي يمكن استظهارها من خلال آرائه ووجهات نظره.

وعلى هذا الأساس، فالمقصود من الاتجاه التفسيري هو طبيعة التوجّه العامّ عند المفسّر، المتأثّرة بتوجّهاته الدينية والكلامية ومستوى إحاطته بمختلف العلوم والمعارف، وكذلك نظره الخاصة إلى قضايا العصر، وبخاصّة في ما يتعلّق بقضايا المجتمع ومتطلّباته.

على سبيل المثال، نلاحظ أنَّ اهتمامات بعض المفسّرين تركّز على مجال التربية المعنوية للإنسان، في حين أنَّ بعضهم الآخر يحرص على التصديّ للاستبداد ومواجهة الأنظمة الجائرة وتشكيل الحكومة الدينية. وعلى الرغم من وجود كثيرٍ من أوجه التشابه بين الفئتين في كيفية تناول المفاهيم القرآنية، فهما يختلفان من حيث التوجّه الخاصّ بكلٍّ منهما، وبالتالي تختلف المؤدّيات والنتائج حتى لو فرضنا وحدة المصادر المعتمدة المعتمدة لدى كلٍّ من الفئتين⁽²⁾.

(1) الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمّد (1362ش)، المفردات في غريب ألفاظ القرآن الكريم، الطبعة الثانية، منشورات مكتبة مرتضوي، ص 55.

(2) الرضائي الأصفهاني، محمّد علي (1383 هـش)، دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية للقرآن، تعريب: قاسم البيضاني، قم، المركز العالمي للعلوم الإسلامية، ص 22؛ إيازي، محمّد علي (1373ش)، المفسّرون حياتهم ومنهجهم، الطبعة الثانية، طهران، مؤسسة الطباعة التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامية، ج 1، ص 32.

إذًا، فالمعيار الرئيس في المنهجية والأسلوب التفسيري هو نوعية المصادر والمسارات والمرتكزات الخارجية التي يعتمد عليها المفسر حين ممارسة عملية التفسير، في حين أن المعيار في الاتجاه التفسيري هو التوجّهات العقائدية والكلامية وطبيعة الأذواق والمشارب الروحية التي يمتاز بها المفسرون بعضهم عن بعض، ونمثّل لذلك بالتفسير العرفاني، فقد تُطَلّق هذه العبارة ويراد منها التفسير الذي يعتمد على الكشف والشهود للوصول إلى المقصود كمنهجية تفسيرية، وحينئذ يُصنّف هذا النوع من التفسير في إطار الأساليب التفسيرية، ولكن حينما نقصد من التفسير العرفاني التفسير الذي يلاحظ فيه التوجّهات المعنوية والأخلاقية والتربوية الخاصة بالمفسر، والمبتنية على طبيعة ذوقه ومشربه وخصائصه الفكرية والروحية، فحينئذ يتم اعتبار ذلك كأحد الاتجاهات التفسيرية⁽¹⁾.

تفسير القرآن الكريم والاتجاه الاجتماعي

التفسير في الاصطلاح بمعنى الكشف عن الإبهامات الموجودة في كلمات القرآن الكريم أو عباراته، مع توضيح مقاصده وأهدافه. وبعبارة أخرى: هو توضيح المفهوم الاستعمالي للآيات وتبيين المراد الواقعي منها، وذلك بالاعتماد على قواعد اللغة العربية وآدابها وأسس المحاوراة العقلية⁽²⁾.

هذا، والقرآن الكريم يتعرّض إلى المسائل العقديّة والأحكام التكليفية للإنسان، فكثير من مطالبه ترتبط بحياة البشر الاجتماعية، وقد أولى المفسرون منذ القدم اهتمامهم بهذا البعد في القرآن من خلال تفسير

(1) الرضائي الأصفهاني، مصدر سابق، ص23.

(2) الطباطبائي، محمد حسين (1363 هـ. ش)، الميزان في تفسير القرآن، طهران، دار الكتب الإسلامية، ج8، ص4؛ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (1414ق = 1373 هـ. ش)، الإتقان في علوم القرآن، (محمد أبو الفضل إبراهيم)، قم، الشريف الرضي، ج2، ص192؛ الطبرسي، فضل بن حسن، (1426 هـ/ 1384 ش)، مجمع البيان في تفسير القرآن والفرقان، طهران، منظمة الاوقاف والشؤون الخيرية، منشورات أسوة، ج1، ص13.

الآيات المرتبطة بالقضايا الاجتماعية، إلا أن القرون الأخيرة شهدت رؤية اتّسمت بالحدّثة لهذا الموضوع، وبخاصّة بعد الحركة الاجتماعية التي قام بها السيّد جمال الدين الأسدآبادي (م 1315هـ) في مصر⁽¹⁾.

و"التفسير ذو الاتجاه الاجتماعي" أو "المدرسة الحديثة في التفسير"⁽²⁾ هو التفسير الذي يسعى إلى إثبات صلاحية القرآن لهداية البشرية كافة في العصر الجديد من خلال كشف المفاهيم والدلالات الإرشادية للقرآن في جميع المسائل المرتبطة بالحياة الإنسانيّة؛ وبخاصة المسائل التي لها دخل في بناء المجتمع والإصلاح السياسي والاقتصادي... وإيجاد الأسلوب الأمثل لمعالجة كافة المشاكل الاجتماعية بالاستناد إلى مدلولات الآيات القرآنيّة ومفاهيمها.

وقد ذكر العلماء والمفسّرون في مؤلّفاتهم تعاريف عدّة للتفسير الاجتماعي. يقول الدكتور الذهبي في كتابه "التفسير والمفسّرون":

«يمتاز التفسير في هذا العصر بأنّه يتلوّن باللون الأدبي الاجتماعي، ونعني بذلك أن التفسير لم يعد يظهر عليه في هذا العصر ذلك الطابع الجاف الذي يصرف الناس عن هداية القرآن الكريم، وإنما ظهر عليه طابع آخر، وتلوّن بلون يكاد يكون جديداً وطارئاً على التفسير؛ وهو معالجة النصوص القرآنيّة معالجة تقوم أولاً وقبل كل شيء على إظهار مواضع الدقّة في التعبير القرآني، ثم بعد ذلك تُصاغ المعاني التي يهدف القرآن إليها في أسلوب شيق أخاذ، ثم يطبّق النصّ القرآني على ما في الكون من سنن الاجتماع، ونظّم العمران»⁽³⁾.

والتفسير برؤية اجتماعية هو تفسير الآيات وتبيين المفاهيم القرآنيّة من زاوية اجتماعية ناظرة إلى الأبعاد الوجودية للإنسان وتغيّرات المجتمع

(1) معرفت، محمّد هادي (1418هـ)، التفسير والمفسّرون في ثوبة القشيب، مشهد، الجامعة الرضويّة للعلوم الإسلاميّة، ج2، ص 456-465؛ الذهبي، محمّد حسين (1961م)، التفسير والمفسّرون، القاهرة، دار الكتب الحديثه، ج2، ص 585 وما بعدها.

(2) الصافي الجويني، مصطفى (1385ش)، مناهج في التفسير، مشهد، مؤسّسة البحوث الإسلاميّة، ص 275.

(3) الذهبي، م.س، ج2، ص 66.

والأهداف التربوية والإصلاحية وتشريع القوانين. والمفسر الاجتماعي إنما يسعى إلى إيجاد حلول بالاعتماد على فهمه للمتطلبات الفردية والاجتماعية عبر المفاهيم القرآنية.

والتفسير المبني على أساس اجتماعي علمي هو تفسير يسعى -مضافاً إلى تبين المسائل الاجتماعية المذكورة في القرآن الكريم- إلى كشف الأصول والقواعد والسنن التاريخية والاجتماعية في القرآن الكريم، وفي هذا الاتجاه التفسيري يحاول المفسر إيجاد انسجام في العلاقة بين الأهداف الدينية والأهداف الاجتماعية والعلوم الإنسانية⁽¹⁾.

هذا، ومن أبرز المميزات التي تتسم بها التفاسير المعاصرة ذات الاتجاه الاجتماعي: ارتكازها على الواقعيات والاهتمام بالمتطلبات على أرض الواقع، وبعبارة أخرى: تجاوز حدود المفاهيم المجردة والعلمية، ولحاظ الدوافع والحالات الملموسة، وسوق المفاهيم القرآنية باتجاهها، من هنا فالمفسرون الذين أبدوا اهتماماً خاصاً بالمفاهيم الاجتماعية في تفسير الآيات القرآنية يؤمنون بأن المجتمع الإسلامي غداً بعيداً عن المفاهيم القرآنية، وأنه لأجل إحياء الروح الاجتماعية عند المسلمين، ينبغي تفسير القرآن في إطار الاهتمام بالمتطلبات والواقعيات الموجودة والملموسة في الحياة البشرية الحديثة.

خصائص الاتجاه الاجتماعي في تفسير القرآن الكريم

من خلال دراسة رؤى المفسرين المعاصرين وأفكارهم، يظهر أن ثمة بعض القواسم المشتركة في تفاسيرهم؛ منها:

1. الاهتمام بالآيات القرآنية التي ترتبط ببيان المسائل الاجتماعية.
2. الاهتمام بمشاكل المسلمين وتطبيق الآيات القرآنية على حياة الناس، وطرح سبل معالجة المشاكل الاجتماعية.

(1) إيازي، م.س، ج1، ص 71 و53.

3. أنهم قلّ ما يتطرّقون إلى الاتّجاهات الفلسفيّة والمذهبيّة واختلاف المدارس الأدبيّة والفقهية، فهم يسعون إلى أخذ العقائد من القرآن، لا أن يجعلوا القرآن تابعًا للعقائد والمذاهب.
4. الاهتمام بالاتّجاهات العصريّة في موضوع الجهاد الإسلاميّ وضرورة مواجهة الأعداء، وبخاصّة الكيان الصهيونيّ والمستعمرين الغربيّين.
5. الاهتمام الخاصّ بالتعاليم التربويّة والإرشاديّة في القرآن الكريم.
6. مواجهة الروايات الموضوعيّة والضعيفة وتجنّبها في هذه التفاسير.
7. الاستفادة بصورة عامّة من أسلوب البيان السهل القابل للفهم لكي يستفيد عامّة الناس في المجتمع من هذه التفاسير.
8. ردّ الشبهات والمغالطات التي يطرحها المخالفون بالنسبة إلى الإسلام والقرآن.
9. يمتلك المفسّر الاجتماعيّ نفسيّة اجتماعيّة، فهو لا ينظر إلى الآيات القرآنيّة والأحكام الإسلاميّة من زاوية فرديّة.
10. المفسّر الاجتماعيّ مبدعٌ ولا يقلّد أساليب الآخرين في التفسير، ويسعى من خلال بيانه العذب إلى تطبيق الآيات القرآنيّة على المتطلّبات العصريّة وبأسلوب يمكن للجميع فهمه.
11. تفسير السنن والقضايا التاريخيّة وتطبيقها على قضايا العصر ومستجدّات.
12. بذل الجهد من أجل تمكين إجراء أحكام الشريعة.
13. الاهتمام بالعقل.
14. الاهتمام بالعلوم التجريبيّة والطبيعيّة.
15. الاهتمام بالجهاد الإسلاميّ ومواجهة الاستعمار الغربيّ والكيان الصهيونيّ.
16. الاهتمام بمسألة الوحدة والجهود التقريبيّة والسعي إلى وحدة الأمة الإسلاميّة.

17. تعريف المسلمين وتوجيههم نحو إقامة العلاقات الاجتماعية بعضهم مع بعض.
18. طرح سبل إقامة العلاقات بين المسلمين وغيرهم من الأمم الأخرى، والتأكيد على أصل نفي السبيل في السياسة الخارجية للإسلام.
19. الاهتمام بموضوع الحكومة الإسلامية والقضايا السياسية في المجتمع الإسلامي.
20. بيان المسائل المختلفة المرتبطة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
21. الاهتمام بالجوانب التربوية والأخلاقية في أمور الصحة الفردية والاجتماعية (الإسراف، الطعام النظيف، ...).
22. الاهتمام بمسألة التعاون الاجتماعي (في الأمور الخيرية وإعانة الفقراء و...).
23. بيان مسألة حرية الإنسان، وبخاصة حرية التعبير والحقوق الاجتماعية وضرورة مكافحة الظلم والاستبداد.

السيد محمد حسين الطباطبائي؛ المفسر الاجتماعي

وُلد العلامة آية الله محمد حسين الطباطبائي في التاسع والعشرين من ذي الحجة سنة 1321هـ/1904م، في مدينة تبريز في إيران. وقد نشأ السيد الطباطبائي وترعرع في أسرة عريقة بالعلم والثقافة. تعلم في المدرسة القرآن والأدب الفارسي والرياضيات، كما تعلم في الجامعة الإسلامية في تبريز الصرف والنحو والمعاني والبيان والفقه والأصول والكلام.

سنة 1344هـ انتقل إلى النجف وأمضى فيها أحد عشر عاماً منشغلاً بالدراسات الفقهية والأصولية والفلسفية والعرفانية والرياضية.

ثم اضطر العلامة إلى مغادرة النجف والعودة إلى تبريز حيث اشتغل بالزراعة مدة عشر سنوات في قرية «شادباد» التبريزية، وقام خلال هذه

الفترة بتأليف رسائل عرفانية وفلسفية. سنة 1364هـ توجه إلى مدينة قم المقدسة وعاش فيها ما يقارب 35 سنة، حيث درّس فيها التفسير والفلسفة والعلوم العقلية، مضافاً إلى تدريس الأخلاق والعرفان ورسالة السير والسلوك. (آل نجف، 1370، 85-93/54)

من أبرز تأليفاته ما يلي: أصول الفلسفة والمذهب الواقعي، حاشية على كتاب "الأسفار الأربعة" لصدر المتألهين، بداية الحكمة، نهاية الحكمة، الرسائل التوحيدية، الرسائل السبع، الشيعة في الإسلام، حاشية الكفاية، رسالة الولاية، رسالة التشيع، رسالة "محمد في المنهج الإسلامي"، تعليقة على كتاب أصول الكافي، رسالة في العشق، رسالة في الحكومة الإسلامية، الوحي، رسالة في الصفات، رسالة في البرهان، عليّ والفلسفة الإلهية، القرآن في الإسلام، أصول العقائد، أصول الفلسفة المادية، تعليقة على كتاب الأصول، سنن النبي، والميزان في تفسير القرآن.

وقد تناول العلامة الطباطبائي تفسير القرآن من بعد اجتماعي، والميزان في تفسير القرآن يعدّ من التفاسير التي انتهجت أسلوب الاتجاه الاجتماعي، كما اعتمد العلامة منهج تفسير الآيات بالآيات، فجعل أساس تفكيره رفع إبهام القرآن بالقرآن، وكان بعدما ينتهي من تفسير الآيات يعقبها ببحوث اجتماعية وفلسفية وأخلاقية وتاريخية.

إنّ الحركة الفكرية العميقة التي يختزنها «الميزان» قد جعلت القرآن منطلقاً وغاية لها؛ فهي تبدأ منه، وتنتهي به دائرة واسعة تحيط بالحياة الإنسانية المعاصرة من أطرافها كافة⁽¹⁾.

لقد كان العلامة الطباطبائي فيلسوفاً، حكيماً، وأستاذاً موهوباً كرّس معظم حياته لتعليم المعارف الإسلامية الحقّة، كما كان أستاذاً في علم

(1) الآلوسي، علي (1405ق/ 1364ش)، الطباطبائي ومنهجه في تفسير الميزان، طهران، منظمة الإعلام الإسلامي، معاونية الرئاسة للعلاقات الدولية، ص 143 و131

الهيئة والأدب العربيّ والفلسفة والأخلاق، وفي الفقه والأصول و... لقد كان مصداقًا بارزًا للعالم الربّانيّ الذي يحمل أخلاقيّة وروحيّة تهبّ منها على المجتمع الإسلاميّ نسمات عبقة بالأخلاق السامية⁽¹⁾.

توفي سنة 1402هـ في الثامن والعشرين من محرّم الحرام، ومضجعه الشريف بجوار مرقد السيّدة فاطمة المعصومة عليها السلام.

تفسير الميزان ومنهج العلامة التفسيريّ

من الوقت الذي تمّت فيه المواجهة بين المسلمين والعالم الغربيّ، نشأ الفكر الإصلاحيّ في أوساط المفكرين الكبار في العالم الإسلاميّ، ومنهم السيّد جمال الدين الأسدآبادي، ومن ثمّ الشيخ محمّد عبده في مصر والسيّد محمّد حسين الطباطبائيّ في إيران.

بدوره، بذل العلامة الطباطبائيّ جهودًا من أجل العودة إلى القرآن والتأمّل فيه مجددًا في سبيل العثور على إجابة مناسبة عن التساؤلات العديدة المطروحة آنذاك. ومن هنا يذكر العلامة الطباطبائيّ في الميزان نظريّات وأبحاثًا علميّة حديثة كلّما تطرّق الحديث إلى قضيّة من قضايا التاريخ أو الخلق والتكوين، كما في الأبحاث المتعلقة بقصّة نوح عليه السلام والطوفان. وبهذا استطاع العلامة أن يدعم المفهوم الصحيح للعصريّة؛ فهي لا تعني عنده الأخذ بمعطيات العصر والالتحام معه. بل تعني الاطلاع على تلك المعطيات واستيعابها واعتماد الأصالة ومقياسًا لتحديد الحسن فيها من القبيح⁽²⁾.

وبهذا فالميزان كتاب علميّ، فنيّ، فلسفيّ، أدبيّ، تاريخيّ، روائيّ، اجتماعيّ، حديث يفسّر القرآن بالقرآن⁽³⁾. كما يُعتبر الميزان في تفسير

(1) آل نجف، عبدالكريم، العلامة السيّد محمّد حسين الطباطبائيّ، (تيرماه 1370)، التوحيد، ص 54 - 85.

(2) المصدر نفسه، ص 90-89

(3) زمامة، عبد القادر (1417هـ/1997م)، معجم تفاسير القرآن الكريم، إيسيسكو، منشورات المنظّمة الإسلاميّة للتربية والعلوم والثقافة، ص 438.

القرآن دليلاً واضحاً على الاتجاه الفكري الاجتماعي عند العلامة الطباطبائي، بشكل يجعل هذا التفسير مختلفاً عن التفسير السابقة؛ فأكثر تفاسير المتقدمين -بل وحتى بعض التفسير المعاصرة- لم تكن لتهتم بالاتجاه الاجتماعي في التفسير، بل كان أكثر ما يركزون عليه هو تبين كلام الوحي من حيث البعد الفردي ولوازمه، دون أن يهتموا كثيراً بطرح مواضيع أخرى من قبيل: الحكومة، الحرية، العدالة الاجتماعية، النظام الاجتماعي، مشاكل الأمة الإسلامية، أسباب تأخر المسلمين، تنظيم الحياة الاجتماعية، الاهتمام بالأبعاد المادية والمعنوية في الإسلام، الرد على شبهات المستشرقين في بعض المجالات كالحدود والديات وحقوق المرأة والأقليات الدينية، وسائر المباحث الكلامية والفقهية المرتبطة بشكل أو بآخر بالقضايا الاجتماعية، في حين أن المرحوم العلامة الطباطبائي قد تناول هذه المسائل بصورة تفصيلية، فقام ببحثها ودراستها وإبداء رأيه فيها بالتفصيل التام مع ذكر الأدلة والبراهين.

من خلال دراسة المنهجية الفكرية لدى المفسرين الاجتماعيين المعاصرين، ومنهم العلامة الطباطبائي، وتأكيدهم على ضرورة اهتمام المجتمعات الإسلامية بالمفاهيم المتعالية في القرآن الكريم، والتشديد على الاستفادة من تعاليمه وإرشاداته على مستوى الحياة الاجتماعية، يظهر أنهم كانوا يشتركون في الأسس النظرية والعملية، وفي ما يلي أهم الأسس النظرية والعملية للاتجاه الاجتماعي في الميزان في تفسير القرآن:

1. أصالة الفطرة الاجتماعية عند الإنسان⁽¹⁾.

2. تأثير السلوكيات الفردية في المجتمع، وبالعكس⁽²⁾.

(1) الطباطبائي، م.س، ج2، ص 111؛ المرآغي، أحمد مصطفى (1382ق=1962م)، تفسير المرآغي، مصر، شركة مكتبة المطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ج 2، ص 121.

(2) الطباطبائي، مصدر سابق، ج8، ص86؛ الزحيلي، وهبة بن مصطفى (1418هـ)، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، الطبعة الثانية، بيروت، دارالفكر المعاصر، ج 8، ص 194؛ قطب، سيد (1415ق = 1995م)، في ظلال القرآن، بيروت، دار الشروق، ج3، ص1285.

3. إمكانية استخراج القوانين والتعاليم الاجتماعية واستنباطها من القرآن⁽¹⁾.
4. التأكيد على قدرة القرآن الكريم على هداية البشرية في جميع العصور⁽²⁾.
5. شمول هداية القرآن لكافة أبعاد الحياة الإنسانية (التأكيد على أن التعاليم الإسلامية هي تعاليم اجتماعية) والاهتمام بمتطلبات الإنسان المعاصر⁽³⁾.
6. التأكيد على احتواء القرآن على الأحكام والتعاليم الاجتماعية⁽⁴⁾.
7. التأكيد على اهتمام القرآن بالإصلاح الاجتماعي، مضافاً إلى الإصلاح على الصعيد الفردي⁽⁵⁾.
8. السعي إلى تطبيق الدين على المتغيرات الزمانية⁽⁶⁾.
9. الاهتمام بالتجارب البشرية في فهم النص⁽⁷⁾.

مميزات الفكر الاجتماعي عند العلامة الطباطبائي

العقلانية، الاطلاع على المسائل الاجتماعية ومتطلبات المجتمع، الإلمام التام بإشكالات المخالفين وشبهاتهم، السعي إلى تطبيق الدين على المتغيرات الزمانية؛ هذه الأمور كلها تُعدّ من مميزات الفكر الاجتماعي عند العلامة الطباطبائي، والتي تظهر في الميزان في تفسير القرآن، وهنا

- (1) الطباطبائي، م.س، ج4، ص232 و98 و21؛ عبده، محمد ورشيد رضا، محمد (1990 م)، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج9، ص358 و298
- (2) الطباطبائي، ج11، ص178؛ الصدر، محمد باقر، (1417ق) اقتصادنا، قم، الحوزة العلمية، مركز النشر بمكتب الإعلام الإسلامي، ص-356 359.
- (3) الطباطبائي، م.س، ج12، ص242؛ مكارم الشيرازي، ناصر (1362 هـ - ش)، تفسير الأمتل (نموه)، طهران، دار الكتب الإسلامية، ج1، ص634؛ مغنيه، محمد جواد (1424 ق)، التفسير الكاشف، الطبعة الأولى، طهران، دار الكتب الإسلامية، ص200؛ طالقاني، محمود، (1345هـ ش) تفسير إشعاع من القرآن (برتوي از قرآن)، طهران، الشركة المساهمة للنشر، ج1، ص52؛ الطباطبائي، م.س، ج10 ص80.
- (4) الطباطبائي، م.س، ج4، ص-126 130؛ عبده ورشيد رضا، مصدر سابق، ج2، ص390.
- (5) الطباطبائي، م.س، ج11، ص60، تفسير الآية 117 من سورة هود؛ قطب، م.س، ج4، ص1933.
- (6) الطباطبائي، م.س، ج8، ص299-300؛ مكارم الشيرازي، مصدر سابق، المقدمة، ص24-23.
- (7) الطباطبائي، م.س، ج4 ص96-97؛ الطالقاني، مصدر سابق، ج5، ص464؛ عبده ورشيد رضا، م.س، ج4، ص261-260.

سنتناول العقلانية من بين مميّزاته الفكرية.

العقلانية في تفسير الميزان

مضافاً إلى أنّ العقل هو مصدر لتفسير القرآن الكريم، فهو يُعتبر كذلك من أدلة استنباط الأحكام الشرعية الأصلية والفرعية، كما إنّ العقلانية من المميّزات البارزة لفكر العلامة الطباطبائي؛ ذلك أنّ التأمّلات العقلانية للعلامة في تحليل وتفسير القضايا الإسلامية، الفلسفية منها والاجتماعية والأخلاقية، هي من الوضوح بمكان بحيث لا تحتاج إلى إثبات، فنادراً ما تكون هناك مسألة لم ينتبه إليها الفكر الوقاد والرؤية الثاقبة لهذا الرجل العظيم.

ويتمثل أسلوب العلامة في أنّه يتناول المسائل والشبهات بعقلانية وبرهان ودراسة دقيقة ومتقنة لجميع الجوانب والتفاصيل، وهذا ما يظهر أيضاً حتى في دراساته وتحليلاته التاريخية. يقول العلامة حول العقل ومكانته الخاصة في الشريعة: «لو تتبعت الكتاب الإلهي ثمّ تدبّرت في آياته وجدت ما لعله يزيد على ثلاثمائة آية تتضمّن دعوة الناس إلى التفكير أو التذكّر أو التعقّل، أو تلقّن النبي ﷺ الحجّة لإثبات حقّ أو لإبطال باطل⁽¹⁾، أو تحكي الحجّة عن أنبيائه وأوليائه كنوح وإبراهيم وموسى وسائر الأنبياء العظام، ولقمان ومؤمن آل فرعون وغيرهما ﷺ⁽²⁾ إلى آخر ما احتجّوا به»⁽³⁾.

«يقول تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾⁽⁴⁾، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنّ القرآن نور وهدى وتبيان وبيان ومبين وذكر ونحو ذلك»⁽⁵⁾.

(1) سورة المائدة، الآية 17.

(2) سورة إبراهيم، الآية 10؛ سورة لقمان، الآية 13؛ سورة غافر، الآية 28؛ سورة طه، الآية 72.

(3) الطباطبائي، م.س، ج5، ص255.

(4) سورة النساء، الآية 82.

(5) الطباطبائي، م.س، ج3، ص22.

يعتقد العلامة الطباطبائي أن هذه الآية تدلّ دلالة واضحة على أن المعارف القرآنية يمكن أن ينالها الباحث بالتدبر والبحث، وعلى أن ما ورد عن النبي ﷺ في دعوة الناس إلى الأخذ بالقرآن والتدبر فيه وعرض ما نقل عنه عليه قد ورد نظيره عن أهل البيت عليهم السلام أيضاً⁽¹⁾. فأفاد أن التدبر في القرآن أو الرجوع إلى من يتدبر فيه يرفع الاختلاف من البين. وتدللّ على أن الإرجاع إلى الرسول، وهو الحامل لثقل الدين، يرفع من بينهم الاختلاف، ويبيّن لهم الحقّ الذي يجب عليهم أن يتبعوه⁽²⁾. فهذه صورة التفكير الاجتماعي في الإسلام.

«إنّ من الواجب على المسلمين أن يتفكروا في حقائق الدين ويجتهدوا في معارفه تفكراً واجتهاداً بالاجتماع والمرابطة، وإن حصلت لهم شبهة في شيء من حقائقه ومعارفه أو لاح لهم ما يخالفها فلا بأس به، وإنما يجب على صاحب الشبهة أو النظر المخالف أن يعرض ما عنده على كتاب الله بالتدبر في بحث اجتماعي، فإن لم يداوِ داءه عرضه على الرسول أو من أقامه مقامه حتى تنحل شبهته أو يظهر بطلان ما لاح له إن كان باطلاً. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾⁽³⁾»⁽⁴⁾.

اعتمد الطباطبائي في تفسيره علي منهج طبّقه في جلّ الآيات ويأتي ضمن البحث الفلسفي، حيث يذكر فيه الجانب المستفاد من الآيات على سبيل الاستنباط، أو الاستقراء، أو البرهان، وقد يعقد أبحاثاً أخرى للآيات حسب ما تدلّ عليه؛ كالبحث الأخلاقي والبحث العلمي والبحث الاجتماعي⁽⁵⁾.

(1) م.ن، ج3، ص84-87.

(2) سورة النحل، الآية 44؛ سورة النساء، الآيتان 83 و59.

(3) سورة الزمر، الآية 18.

(4) الطباطبائي، م.س، ج4، ص129-131.

(5) زمامة، م.س، ص439.

يقول العلامة الطباطبائي في تفسير ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾⁽¹⁾: «للناس في معنى العرش بل في معنى قوله ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ والآيات التي في هذا المساق مسالك مختلفة، فأكثر السلف على أنها وما يشاكلها من الآيات من المتشابهات التي يجب أن يرجع علمها إلى الله سبحانه، وهؤلاء يرون البحث عن الحقائق الدينية والتطلع إلى ما وراء ظواهر الكتاب والسنة بدعة، والعقل يُخطئهم في ذلك، والكتاب والسنة لا يصدّقانهم؛ فأيات الكتاب تحرّض كل التحريض على التدبّر في آيات الله وبذل الجهد في تكميل معرفة الله ومعرفة آياته بالتذكّر والتفكّر والنظر فيها والاحتجاج بالحجج العقلية، ومتفرقات السنة المتواترة معنى توافقها، ولا معنى للأمر بالمقدّمة والنهي عن النتيجة، وهؤلاء هم الذين كانوا يحرّمون البحث عن حقائق الكتاب والسنة -حتى البحث الكلامي الذي بناؤه على تسليم الظواهر الدينية ووضعها على ما تفيده بحسب الفهم العامي ثمّ الدفاع عنها بما تيسر من المقدمات المشهورة والمسلمة عند أهل الدين- ويعدّونها بدعة، فلنتركهم وشأنهم»⁽²⁾.

من هذا نتبين طريقة الطباطبائي في تفسيره للقرآن، فهي طريقة جامعة لمناحي الاجتهاد والاستدلال والتوسّع في التأويل والتحليل الاجتماعي والفلسفي، حسب ما تقتضيه الآيات⁽³⁾.

الإصلاح الاجتماعي في تفسير الميزان

مضافاً إلى بيان القرآن الكريم لماهية الدعوة الإصلاحية، نجده يعبر عن مصاديق الإصلاح والإفساد الاجتماعي، فيحمد المجتمع الذي يقوم على التوحيد وعبادة الله الواحد، ويعرب عن العدل ويحذّر من الفساد في هذا المجتمع⁽⁴⁾.

(1) سورة الأعراف، الآية 54.

(2) الطباطبائي، م.س، ج8، ص153.

(3) زمامة، م.س، ص 446.

(4) صاحب، محمد جواد (1376ش)، انديشه اصلاحي در نهضت هاي اسلامي، الطبعة الثالثة، قم، دفتر

الإعلام الإسلامي، ص 15-17.

«إرادة الإصلاح والهداية في الأنبياء ليست مجرد شعار أو وصف طارئ يأتي ويذهب؛ بل هي من مقومات العصمة أو الخصائص التي لا تنفصل عنها بحال، وبعض الناس أو الأدعياء ينعنون أنفسهم بهذا الوصف دون أن ينظروا إلى معناه بعين الاعتبار، وهم بذلك يدعون العصمة أو التشبه بالأنبياء من حيث لا يشعرون. أدعوكم إلى النجاة والحياة لوجه الله لا أريد منكم جزاءً ولا شكوراً، وهذا هو الشرط الأساس في كلِّ مصلح»⁽¹⁾.

«المصلح يعظ الناس بأفعاله قبل أقواله، ويستمر في دعوته متحملاً في سبيلها الأذى والمشاق، ومن أجل هذا كان شعيب وغيره من الأنبياء يأكلون من عمل أيديهم، ويتحمّلون الأذى من الكافرين والمعاندين متوكلاً على الله وطالباً منه العون وراجعاً إليه في جميع أموره»⁽²⁾.

وفي تفسيره الآية ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾⁽³⁾، يقول العلامة الطباطبائي: «إنَّ الصنع الإلهي أفرط الإنسان على الاجتماع فلا تتم له الحياة إلا في مجتمع من أفراد النوع يتعاون فيه الجميع على رفع حوائج الجميع ثم يختص كلُّ منهم بما له من نصيب بمقدار ما له من الزنة الاجتماعية، ومن البديهي أن الاجتماع لا يقوم على ساقٍ إلا بسنن وقوانين تجري فيها، وحكومة يتولاها بعضهم تحفظ النظم وتجري القوانين؛ وذلك كله على حسب ما تدعو إليه مصالح المجتمع»⁽⁴⁾.

ثم أفرطه بالحياة الاجتماعية فأذعن بوجوب تأسيس المجتمع المنزلي والمدني والسير في مسير التعاون والتعامل، ويضطره ذلك إلى الحرمان عن موهبة الحرّية من جهتين:

(1) مغنيّة، مجمد جواد (1403هـ)، التفسير المبين على هامش القرآن الكريم، الطبعة الثالثة، بيروت، مؤسسة عزّالدين، 297.

(2) مغنيّة، 1424ق، 4 / 261.

(3) سورة هود، الآية 88.

(4) الطباطبائي، م.س، ج10، ص 367.

إحداهما أن الاجتماع لا يتم من الفرد إلا بإعطائه الأفراد المتعاونين له حقوقاً متقابلة محترمة عنده ليعطوه بإزائها حقوقاً يحترمونها، وذلك بأن يعمل للناس كما يعملون له، وينفعهم بمقدار ما ينتفع بهم، ويحرم عن الانطلاق والاسترسال في العمل على حسب ما يحرمهم، فليس له أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد؛ بل هو حرٌّ في ما لا يزاحم حرّية الآخرين، وهذا حرمان عن بعض الحرّية للحصول على بعضها.

وثانيتها: أن المجتمع لا يقوم له صلب دون أن يجري فيه سنن وقوانين يتسلّمها الأفراد المجتمعون أو أكثرهم تضمن تلك السنن والقوانين منافعهم العامّة بحسب ما للاجتماع من الحياة الراقية أو المنحطة الرديّة، ويستحفظ بها مصالحهم العالية الاجتماعيّة.

ومن المعلوم أن احترام السنن والقوانين يسلب الحرّية عن المجتمعين في مواردّها؛ فالذي يستنّ سنّة أو يقنّن قانوناً، سواء كان هو عامّة المجتمعين أو المندوبين منهم أو السلطان أو كان هو الله ورسوله، على حسب اختلاف السنن والقوانين؛ يحرم الناس بعض حرّيتهم ليحفظ به بعضها الآخر⁽¹⁾.

«دين الله لإصلاح الإنسان والحياة فإن أريد إلا الإصلاح ما استطعت». هذا هو الشعار الذي أرفعه في حركة الرسالة، وهذا هو مضمون مفاهيمها وتشريعاتها، وهذا هو الهدف الذي أسعى إليه من وراء موقفي معكم ومع الناس، فليس لديّ هدف شخصي في ما أدعوكم إليه، ولا أريد ممارسة السيطرة عليكم ولا التحكّم بكم، بل كلّ ما أريده تأدية الرسالة في إصلاح الإنسان والحياة، على هدي دين الله، ولذا فإنني ألتم في نفسي وفي حياتي العمليّة بما أدعوكم إليه، وهل يريد الإنسان لنفسه إلا الخير؟ «وما توفّيقني إلا بالله»، وسأستمرّ في السير إلى الهدف، متطلّعاً إلى توفيق الله ورعايته، معتمداً على الله؛ فهو الذي يهيئ لعباده الأسباب، ويدبّر لهم الأمور⁽²⁾.

(1) الطباطبائي، م.س، ج 10 ص 372 - 371

(2) فضل الله، محمّد حسين (1363هـ-ش)، تفسير من وحي القرآن، قم، دار الكتب الإسلاميّة، ج 12، ص